# أدب الأطفال .. وتحديات إشكاليات التجديد

**أ. إيهاب القسطاوي**

**كاتب صحفي**

**متخصص في أدب الأطفال**

باتت واضحة جدًا آثار الأزمة الوخيمة التي تلقي بظلالها على أدب الأطفال، سواء من حيث المحتوى النصي أو تقنية العرض والأسلوب، والتي آلت إليها أوضاع المحتوى المخصّص للأطفال في عالمنا العربي، وإنه لمن المؤسف جدًا أن جميع الدول العربية لم تتمكن على مدار سنواتٍ من إنتاج قصة للأطفال ترتقي إلى مصاف العالمية، لذا فقد أصبحنا في حاجة مُلحّة الى مراجعة ما نقدّمه لأطفالنا، للوقوف بشكلٍ علمي دقيق على أسباب هذه الأزمة، وكيفية تداركها، والعمل بشكلٍ جدّي لإنتاج أعمال ملهمة ومُحفّزة للأطفال، من خلال ابتكار محتوى يحاكى البيئة المحلية، نستطيع من خلاله أن نحلّق بروح الأطفال البريئة، ونتماشى مع فطرتهم الإنسانية الخالصة، ونحمل إليهم قيمًا وسلوكيات نودّ حقًا أن نعزّزها بهم، والاستعاضة عن التكرار والعادي والتقليد المبتذل، بالإبداع الحقيقي، وخصوصًا ونحن في بداية مرحلة جديدة من التواجد بكثافة في قلب القارة السمراء التي تُعد بمثابة عمق ثقافي لنا، ومما يؤهلنا ليكون لدينا فرصة ذهبية للوصول للعالمية بالمحتوى المخصّص للأطفال.

والحقيقة إن أدب الأطفال في العصر الحالي، يواجه العديد من التحديات التي قد تكمن في مُجملها في إشكاليات التجديد، وآليات التغير والتغيير، وتشابك المفاهيم والخصائص التي تحملها، مع الطفرة التكنولوجية الهائلة، والتقنيات الحديثة المذهلة بكل ما تحمله من رؤى وأفكار مغايرة، مما قد أسهم وبشكلٍ كبيرٍ على تقوقعه وانكفائه على ذاته، لتكون المُحصِّلة النهائية، منتجًا مكررًا ورتيبًا، لا يروى ظمأ خصوبة خيال الأطفال، ولا يجيب على تساؤلاتهم المحقّة التي ترواهم، مما قلّل من توزانه الدفاعي، باعتباره الوعاء والحاضنة الحقيقية للأطفال من حيث غَرْس بذور الوعى، والقيم الأخلاقية من عدمها، مما دفع بخلْق حالة من العزوف عنه، لينتحى جانبًا، ويمهد الطريق أمام هذه التكنولوجيا؛ نظرًا لسهولة تداولها نسبيًا، ولا خيار أمامه سوى أن ينظر في أساس التقدم والتطور الذى يحيط به من كل اتجاه، ويمضي في رَكْب الحداثة، بكل ما تحمله من تقدم وتطور مفاجئ، وأن يغيّر مفهومه ليواكب هذه التحديات التي تنمى لطفل هذا العصر

الفضول، وتشعل في رأسه أسئلة جديدة تجعل عقله يبحث عن الإجابات المقنعة، خصوصًا بعدما زاد الحديث في الآونة الأخيرة، عن وضع أدب الأطفال ودوره في مواجهة هذه التقنيات الحديثة المذهلة بكل ما تحمله من رؤى وأفكارٍ مغايرة وبمستقبله وأهدافه والتحديات التي تواجهه، و الوسائل التي يمكن أن يستعين بها لمواجهة هذه التحديات والتغلب عليها.

لذلك لقد حان الوقت لمبدعى أدب الطفل في مصر وعالمنا العربى، ومؤسساتهم الممتدة من الخليج العربي للمحيط الأطلسي، ولاسيما المؤسسات الثقافية التي تتباهى بعض الدول النفطية العربية من خلالها بإطلاق آلاف النسخ من المسابقات المخصصة للأطفال والناشئة في مراحلهم العمرية المختلفة، ولمبدعى أدب الطفل، باشتراطات عفا عليها الزمن، للتجرؤ على اقتحام الكابوهات والمحرمات المحكومة دائمًا بسلسلة من المصدات والمحرمات بوزاع منظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية كالعيب والحرام، بجسارة.

وَقَدْ أَجد لزامًا عليّ في هذا الصدد أن أقتبس فقرة مهمة من مقال الدكتورة نوال السعداوي، المنشور في موقع جريدة "إيلاف" الإلكترونية في ١٠ يونيو ٢٠١٥ بعنوان "أسئلة الأطفال المحرمة وتجديد الفكر الدينى"، حيث قالت: "تتطلع الطفلة أو الطفل بانبهار الى أضواء النجوم وتسأل: مين خلق النجوم؟ ويردّ الكبار: ربنا، وعلى الفور تسأل الطفلة أو الطفل: ومين خلق ربنا؟ سؤال بديهى يَرِد لجميع الأطفال، ثم يطويه النسيان ضمن أسئلة يتم تحريمها؛ خوفًا من السلطة في البيت والمدرسة، يؤدى الخوف الى النسيان، حماية للطفل أو الطفلة من القلق وانتظار الحرق بالنار أو الإصابة بالصرع".

لذا فإن مهمة تحرير عقول الأطفال من الخوف من النقد باتت المعركة الحقيقية لكُتاب أدب الأطفال، بأن يخترقوا بوعي وشجاعة ومسؤلية عالم "القارئ الصغير" انطلاقًا من اللغة التي يفهمها، لتهيئة بيئة من الوعى والمعرفة في وجدانه، وإلا سيصبحون نسخًا مُبتذَلة سخيفة لأسلافهم الذين عملوا على مدار عقودٍ من الزمن على اجتزاز الوعي من عقول أطفالنا بسطحية وبشاعة ما يكتبون، أَوْ أن يتركوا المجال لمبدعين حقيقيين بزخمٍ ثقافي وفني وإبداعي.